

أبو عبيد القاسم بن سلام ، وكتابه "فضائل القرآن"

د. طه بوسريح

المعهد العالي لأصول الدين،

جامعة الزيتونة

إنّ الناظر في ضروب الثقافة الإسلامية، يجد نفسه مضطراً إلى الوقوف أحياناً، عند محطات علمية مثيرة للاهتمام، تشدّ انتباه الباحث المجدّد، فينشغل بها، ويحط رحله عندها. ولعل أبرز تلك المحطات، الشخصيات العلمية المتميزة، التي كان لها الأثر الكبير في فنون متنوّعة، أو أثارت جدلاً بين الدارسين، وأثارت حفيظتهم، وشدّت همهم لبحثها أو الوقوف على جوانب الطرافة لديها. وإنّه ليس ببعيد عن نهج الصواب، إذا قلنا إنّ الإمام أبا عبيد القاسم بن سلام الهروي، من أبرز الشخصيات الفكرية التي مثّلت ثقافة الإسلام في أبعى صورها، في أزهى عصور التاريخ الإسلامي، وهو القرن الثالث للهجرة الملقّب عند الباحثين بالعصر الذهبي. فهو الإمام اللغوي القدير، والأديب الأريب، والفقيه المجنّهد الذي لا يقلّد أحداً، والمقرئ العريف الذي تبوّأ بين القراء منزلاً، بل هو تجاوز ذلك فسنّ للمفسرين والمشتغلين بالقرآن الكريم

منهجاً قويمًا. من أجل ذلك، أردت أن أدرس جانباً من إضافات هذه الشخصية الفذة، في مجال علوم القرآن واخترت كتابه القيم : "فضائل القرآن"

وقسمت هذا البحث الصغير إلى ثلاثة عناصر، هي على النحو التالي :
التعريف بأبي عبيد، وبيان ثقافته القرآنية ثم التعريف بالكتاب، واستعراض منهج صاحبه فيه، فأثر الكتاب في الدراسات القرآنية وفي الأخير، عقدت خاتمة موجزة.

1 - التعريف بأبي عبيد :

أ - اسمه ونسبه ومولده : هو القاسم بن سلام بن عبد الله، المعروف بأبي عبيد بالتصغير. كان أبوه سلام - بتشديد اللام - مملوكاً رومياً لرجل هروي⁽¹⁾. كما اشتهر أبو عبيد بأنه هروي وزاد بعضهم : البغدادي⁽²⁾، وذلك لطول مقامه ببغداد. ولد أبو عبيد سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة بهراة.

ب - نشأته وحياته :

بعد أن تلقى أبو عبيد رحمه الله في مسقط رأسه مبادئ التعليم، وذلك استجابة لرغبة أبيه، الذي كانت في لسانه لوثة، وضعف من جهة العربية⁽³⁾، غادر هراة - التي ولد فيها - في صغره إلى البصرة والكوفة، لكي يدرس هناك اللغة والفقه والكلام، على من عرف في ذلك الحين بالتضلّع في تلك العلوم.

(1) نسبة إلى هراة وهي مدينة عظيمة من مدن خراسان (أفغانستان الآن) معجم البلدان لياقوت الحموي (456/5 - طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت).

(2) كالذهبي في معرفة القراء الكبار (170/1) تحقيق شعيب الأرنؤوط وبنار عواد وصالح مهدي عباس، ط أولى، 1984م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(3) يروى أنه خرج يوماً وولده أبو عبيد مع ابن أستاذه في المكتب، فقال للمعلم : علمي القاسم فإنها كيسة. (وهذه لهجة الأعاجم يخاطبون المذكر بخطاب الأنثى) كذا في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (403/12 - طبعة دار الكتاب العربي بيروت) وسير أعلام النبلاء للذهبي (491/10 -) تحقيق شعيب الأرنؤوط وجماعة من الباحثين، ط أولى، 1988م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

وكان أبو عبيد في أول أمره مؤدباً. فقد قال ابن سعد : "القاسم بن سلام، يكنى : أبا عبيد، وهو من أبناء خراسان، وكان مؤدباً، صاحب نحو وعربية"⁽⁴⁾
وقال ابن النديم : "أبو عبيد القاسم بن سلام، وقيل : سلام بن مسكين بن زيد⁽⁵⁾ وكان زيد حمالاً.

وكان أبو عبيد يخضب بالحناء، أحمر الرأس واللحية، ذا وقار وهيبة، وكان مؤدباً لأولاد الهراثة⁽⁶⁾، ثم صار قاضياً بطرسوس أيام ثابت بن نصر بن مالك، ولم يزل معه ومع أولاده، ثم صار في ناحية عبد الله بن طاهر" وكان - قبل اتصاله بثابت - يؤدب غلاماً في شارع بشر وبشير.

واستمرت ولايته للقضاء على طرسوس، مدة ولاية ثابت لهذه المدينة، فبقي قاضياً لها ثمانية عشر عاماً، من سنة 192هـ/808م إلى سنة 210هـ/825م. وفي سنة 210هـ/825م رجع إلى بغداد، واتصل بعبد الله بن طاهر والي خراسان .

ومما يسترعي انتباه الباحث في حياة هذه الشخصية اتصال أبي عبيد بالأمير عبد الله بن طاهر والي خراسان، والذي كان على قدر من الأدب والمعرفة، والعدل والسلوك الحسن. وكان من حب هذا الأمير للعلم وأهله، اعترافه بفضل أبي عبيد، وإجلاله له، مما فتح نفس العالم له، وجعله يركن إليه، فقوى ذلك بينهما أواصر الأخوة، ووشائج المحبة والاحترام. ولعل في هذه الحادثة ما يبرز العلاقة المتميزة بين العالم والأمير، ما رواه الخطيب بسنده إلى الفسطاطي قال :

(4) الطبقات الكبرى (355/7 - طبعة دار صادر، بيروت للطباعة والنشر).

(5) هذا وهم من ابن النديم فالقاسم بن سلام بن مسكين رجل آخر، ذكره المزي في تهذيب الكمال (370/23) - تهذيب الكمال في أسماء الرجال : جمال الدين يوسف المزي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، ط الرابعة، 1985م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(6) نسبة إلى هرثة بن أعين في خراسان، وهو أحد كبار قواد الرشيد والمأمون.

كان أبو عبيد مع ابن طاهر، فوجه إليه أبودلف، يستهديه أبا عبيد مدة شهرين، فأنفذ أبو عبيد إليه، فأقام شهرين، فلما أراد الانصراف، وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم، فلم يقبلها، وقال :

أنا في جنبه رجل ما يحوجني إلى صلة غيره، ولا آخذ ما فيه علي نقص، فلما عاد إلى طاهر، وصله بثلاثين ألف دينار، بدل ما وصله أبودلف، فقال له :

أيها الأمير قد قبلتها : ولكن قد أغنييتي بمعروفك وبرك، وكفايتك عنها ، وقد رأيت أشتري بها سلاحا وخيلا، وأتوجه بها إلى الثغر، ليكون الثواب متوافرا على الأمير، ففعل (7).

وكان أبو عبيد — رحمه الله — إذا ألف كتابا، أهداه إلى عبد الله بن طاهر، فيحمل إليه ما لا خطيرا، استحسانا لذلك (8).

ولمّا عمل أبو عبيد كتاب "غريب الحدث"، عرضه على ابن طاهر، فاستحسنه وقال : إنّ عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب، لتحقيق أن لا يحوج إلى طلب المعاش، فأجرى له عشرة آلاف درهم في كلّ شهر (9).

قلت : كذا يكون هذا الأمير الرّشيد أسوة للحكام وأصحاب المراكز العليا، الذين يحسن بهم أن يجروا لأهل العلم والبحث الجادّين والمخلصين جريات تكفيهم مؤنّتي الرزق والحياة، ويوفّر لهم ذلك من الوقت ومن الجهد الكثير، فينفعوا أنفسهم و الأمة والمجتمع.

(7) تاريخ بغداد (406/12) وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (215/2-216) أبو الحسن محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الفراء الحنبلي حقّقه وقمّم له وعلق عليه عبد الرحمن العثيمين، ط، 1999م، الأمانة بالسعودية.

(8) تاريخ بغداد (404/12) والسير (493/10).

(9) طبقات الحنابلة (216/2-217) ووفيات الأعيان لابن خلكان (61/4) لأحمد بن محمد بن خلكان تحقيق الدكتور إحسان عباس، ط، دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ج - شيوخه ورحلاته :

لأشك أن ثقافة أبي عبيد الموسوعيّة، كانت نتيجة لجهد معرفي مضن، ومعاونة للرحلة في طلب الحديث والعلم وملاقة الشيوخ، وذلك ديدن أهل الحديث في ذلك الزّمن. وقد تقلّب هذا العلم بين أقطار الخلافة العبّاسيّة التي كانت تعجّ مدنها بأهل العلم والفضل. ففي مرو لقيه طاهر بن الحسين، فوجده أعلم النّاس، فحمله معه إلى سامراء لتأديب ولده. وفي بغداد أقام مدّة فيها، وسمع النّاس منه علما كثيرا، فانتدبه ثابت بن نصر الخزاعي الذي كان يتولّى إمارة الثّغور لتأديب ولده — كما سبقّت الإشارة إلى ذلك — . ثمّ انتقل مع ثابت إلى طرسوس، فولاه القضاء بها ثماني عشرة سنة.

وفي سنة ثلاث عشرة ومائتين للهجرة ترك أبو عبيد قضاء طرسوس، ورحل إلى مصر مع يحيى بن معين، فسمع علماءها، وكتب بها، وقد أشار أبو عبيد إلى زيارته هذه لمصر في كتابه "غريب الحديث " (1/ 226) و (168/4) كما أفاده بعض الباحثين المعاصرين⁽¹⁰⁾.

ثمّ رجع إلى دمشق طلبا للعلم فتلقّى الحديث هناك عن جمهرة من شيوخها. ثمّ بعد ذلك عاد على بغداد، وأخذ يحدث فيها، ويسمعه النّاس. وفي سنة تسع عشرة خرج إلى مكّة حاجّا، استقرّ به المطاف إلى آخر رمق في حياته.

أمّا أساتذته في العلم فهم أكثر، ففي فنّ القراءات وعلوم القرآن، فإنّه أخذ القراءة عرضا وسماعا عن : علي بن حمزة الكسائي الإمام الكبير صاحب القراءة المشهورة، وشجاع بن أبي نصر، وسليمان بن حماد، وإسماعيل بن جعفر، وحجاج بن محمّد، وهشام بن عمار وعبد الأعلى بن مسهر، وسليم بن عيسى، يحيى بن آدم.

(10) هو رمضان عبد التّواب في مقمّة تحقيقه لكتاب أبي عبيد الخطب والمواعظ (12).

كما سمع الحديث من طائفة منهم :

إسماعيل بن جعفر، وشريك بن عبد الله — وهو أكبر شيوخه — وهشيم، وإسماعيل بن عياش، وسفيان بن عيينة، وأبو بكر بن عياش، وعبد الله بن المبارك، وسعيد بن عبد الرحمن الجمحي وعبيد الله الأشجعي، وغندر، وحفص بن غياث، ووکیع بن الجراح، وعبيد الله بن إدريس، وعباد بن عباد، ومروان بن معاوية، وعباد بن العوام، وجريير بن عبد الحميد، وأبو معاوية الضرير، ويحيى بن سعيد القطان، وإسحاق الأزرق، وعبد الرحمن بن مهدي، ويزيد بن هارون، وخلق كثير، على ينزل إلى رفيقه هشام بن عمار، نحوه.

وتفقه أبو عبيد على يد الإمام الشافعي والقاضي أبي يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني صاحبي الإمام أبي حنيفة.

كما أخذ اللغة، والأدب، والغريب، ورواها عن أشهر علماء البصرة، والكوفة، وأئمتها أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبي محمد اليزيدي، وأبي عمرو الشيباني، وأبي زيد الكلابي، والأموي، والكسائي، والفراء، وعلي بن المبارك، والأحمر، وابن الأعرابي، وجماعة حتى قالوا عنه : إنه كان أعلم الناس بالنحو واللغة والفقه.

د — تلاميذه :

صار أبو عبيد إماماً في فنون متعددة، فتصدر للإقراء والتحديث، ورواية الغريب والأدب، فالتف حوله الطلبة من مختلف الأصقاع، وتنافس الكبار في ملاقاته ومذاكرته، كما هرع الصغار إليه والاستفادة من بحر علومه، بل تنافس القاصي والداني في سماع كتبه وروايتها، بعد أن ذاع صيت صاحبها في البلاد وتناقلها الناس في الآفاق حتى قال فيه ابن سعد : " قدم بغداد ففسر بها غريب الحديث، وصنف كتباً، وسمع الناس منه " (11).

(11) الطبقات الكبرى، (355/7).

فروى عن أبي عبيد : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري الكاتب، وأحمد بن يوسف التغلبي، أبو محمد ثابت بن أبي ثاب، وهو ثابت بن عبد العزيز أخو علي بن عبد العزيز البغوي، والحارث بن أبي أسامة، والحسن بن مكرم البزاز، وسعيد بن أبي مريم البصري - وهو من شيوخه - وعباس بن عبد العظيم العنبري، وعباس بن محمد الدوري، وعبد الله بن جعفر بن أحمد بن بحر العسكري، وعبد الله بن الحكم بن أبي زياد القطواني، وعبد الله بن عبد الرحمان الدارمي، وأبو بكر بن أبي الدنيا، وعبد المجيد بن إبراهيم البوشنجي، وأبو الحسن علي بن عبد الله بن سنان الطوسي اللغوي، وعلي بن عبد العزيز البغوي، ومحمد بن إسحاق الصاغاني، ومحمد بن حفص بن عمر الدوري، ومحمد بن يحيى بن سليمان المروزي، وأبو منصور نصر بن داود بن طوق الخلنجي.

هـ - تصانيفه :

الإخلاص من الله عز وجل، يمتن بها على من يشاء من عباده، فثمرة ذلك الأمر الخطير وبركته تتجلى لدى العبد في صور مختلفة، فعند العالم تكون في انتشار كتبه وانتفاع الناس بها، أو في تلاميذه الذين أخذوا عنه وبثوا علمه، وساروا على نهجه، وذلك مسلك الأنبياء الذين لم يورثوا درهم ولا ديناراً، إنما ورثوا العلم. والحق الذي يتبدى لكل ناظر في كتب أبي عبيد، أو للمتأمل في شهادات العلماء حول تصانيفه يجده ممن بارك الله تعالى في علمه. فقد قال فيه الذهبي : "وصنف التصانيف المونقة التي سارت بها الركبان" (12) وقال أيضاً : "من نظر في كتبه علم مكانه من الحفظ والعلم، وكان حافظاً للحديث وعلمه ومعرفته متوسطة، عارفاً بالفقه والاختلاف، رأساً في اللغة، إماماً في القراءات" (13). وقال ابن درستويه النحوي : "جمع صنوفاً من العلم،

(12) السير (491/10).

(13) الذهبي تذكرة الحفاظ (417/2)، تحقيق عبد الرحمان المعلمي، ط دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

وصنف في كل فن من العلوم والأدب، فأكثر وشهر "وقال أيضا : "روى الناس من كتبه المصنفة بضعة وعشرين كتابا في القرآن والفقه وغريب الحديث، والغريب المصنف، والأمثال، ومعاني الشعر، وغير ذلك. وله كتب لم يروها، قد رأيتها في ميراث بعض الطاهرين تباع، كثيرة في أصناف الفقه كله".

وقال أيضا : "وكتبه مستحسنة مطلوبة في كل بلد، والرواة عنه مشهورون ثقات، ذوو ذكر ونيل"⁽¹⁴⁾.

— الآثار المطبوعة :

- الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى : نشره امتياز على عرشي الرامغوري في بومباي بالهند سنة 1338م وقد يكو جزءا من كتابه الكبير "الغريب المصنف".
- الأمثال : نشره الدكتور عبد المجيد قطامش من منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة 1980 م وهو من أفضل ما وضع أبو عبيد.
- الأموال : نشره الشيخ محمد حام الفقي، سنة 1353هـ/1934م. ثم نشر مرة أخرى بتحقيق محمد خليل هراس بالقاهرة سنة 1388هـ/...م. وهذا ينبىء عن إمامته في الفقه والاجتهاد، واطلاع عن مذاهب الفقهاء ووقوفه على أوجه الخلاف بين العلماء.
- الإيمان ومعالمه : حققه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في "مجموعة من كنوز السنة رسائل أربعة" سنة 1385هـ/1965م وطبع بدمشق.
- الخطب والمواعظ : حققه الدكتور رمضان عبد التواب ونشر في مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة سنة 1986 م.

(14) تاريخ بغداد (404/12) وطبقات الحنابلة (214/2).

- الطهور : حقّقه الشيخ مشهور حسن سلمان ونشرته مكتبة الصحابة بجدة سنة 1994م.
 - غريب الحديث : طبع في حيدر آباد الدكن بالهند سنة 1965م وهي أفضل طبعاته، ثم صور في بيروت وخرج في طبعات تجارية سيئة، والكتاب لا يزال في رأيي وعند كثير من الباحثين يحتاج إلى خدمة علمية تليق بمقام صاحبه. وهذا التصنيف اعتبره كثير من العلماء القدامى والمحدثين من أفضل مصنف أبو عبيد إن لم أقل أفضلها على الإطلاق، وبتتبعي لكتب غريب التي جاءت بعد عصر أبي عبيد تبين لي أنها كلها تنقل عنه، أو تستدرك عليه، بل إن ابن قتيبة والذي يعتبر من طبقة تلاميذه عمل كتابه في غريب الحديث على غرار كتاب أبي عبيد، كتّمّة أو استدراك عليه، كما عمل جزءا في إصلاح غلطه.
 - الغريب المصنّف : وهذا الكتاب من أنفس ما كتب أبو عبيد في اللغة، فإنّه أودعه مكنونه من العلم، وبذل فيه من الجهد الكثير. ويسلك هذا التأليف ضمن معاجم المعاني، وهو يعتبر أول معجم عربي كبير رتب على الموضوعات على نمط كتاب المخصّص لابن سيده. وقد طبع جزء منه بتحقيق الدكتور رمضان عبد التّوّاب، ثم صدر كاملا بتحقيق الدكتور مختار العبيدي في ثلاثة أجزاء بدار سحنون بتونس سنة 1996م.
 - فضائل القرآن : طبع عدّة طبعات يأتي الحديث عنها قريبا.
 - النّاسخ والمنسوخ في القرآن : وهو كتاب مفيد للغاية، يدلّ على إمامته في معرفة القرآن. طبع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد صالح المديفر بمكتبة الرّشد بالرياض سنة 1411هـ/1990م.
- الآثار المخطوطة :
- الأضداد في اللّغة : ذكر بروكلمان أنّ منه نسخة في هاشر أفندي
- 874 (تاريخ الأدب العربي)

- الإيضاح : ذكر بروكلمان أن منه نسخة في فاس أول (القرويين)
- خلق الإنسان ونعوته : مخطوط في طبقب وفي تركيا (2555 رقم1)
- فعل وأفعلت : ذكر بروكلمان أن منه نسخة بالقاهرة (ثاني 281/3)

— الآثار المفقودة :

- آداب الإسلام : (ألف باء للبلوي 27/2)
- الأحداث : (الفهرست ص : 113)
- أدب القاضي : المصدر السابق ص : 113
- استدراك الخطأ : (مقدمة تاج العروس للزبيدي 4/1)
- الأمالي : ذكره السيوطي في المزهرة (323/2)
- أنساب الخيل : ذكره الزبيدي في مقدمة (تاج العروس)
- أنساب العرب : المصدر السابق
- الأيمان والنذور . (الفهرست لابن النديم :ص : 113)
- الحجر والتفليس (المصدر السابق :ص : 113)
- الحيض . (المصدر السابق : ص : 113)
- الرجل والمنزل : انظر : (البلغة في شذور اللغة) ويبدو في نظر بعض الباحثين أنه من أبواب كتاب : الغريب المصنف"
- الشعراء : (الفهرست : ص 113)
- شواهد القرآن : (فهرسة ابن خير : ص : 71)
- عددآي القرآن (الفهرست : ص 113)
- غريب القرآن : (المصدر السابق : ص 113)
- فضائل الفرس : (صبح الأعشى : 4/92)

- القراءات : قال الذهبي : ولأبي عبيد في القراءات كتاب ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله⁽¹⁵⁾. ونقل عنه في بعض المواضع⁽¹⁶⁾
- ما خالف فيه العامة لغة العرب : (بروكلمان : 159/2)
- المجاز
- المذكر والمؤنث : (الفهرست ص : 113)
- معاني الشعر : (تاريخ بغداد 404/12 و طبقات الشافعية للسبكي 27/1)
- معاني القرآن : وقالوا عنه : وكتابه في معاني القرآن حدث بنصفه ومات، وقد جمع في من كتب من تقدمه، وجاء فيه بالآثار، وأسانيدها، وتفسير الصحابة، والتابعين، والفقهاء، وأكثره غير مروي عنه لأنه لم يسمع منه باقية. وينظر (الفهرست ص : 113)
- مقاتل الفرسان : (المزهر في علوم اللغة 276/2)
- المقصور والممدود. (الفهرست ص : 113)
- النسب : المصير السابق ص : 113
- النكاح : ذكره ابن حجر في المعجم المفهرس : (50)⁽¹⁷⁾

و- منزلته العلمية :

لقد تبوأ أبو عبيد مكانة علمية متميزة بين أبناء عصره، كما احتل منزلة عالية عند العلماء الذين جاؤوا من بعده، فكل أوفى له الثناء، وبالغ في المدح، فكان له الثناء الحسن في الحياة والذكر الجميل بعد الممات.

(15) معرفة القراء الكبار، (172/1).

(16) المصدر السابق، (72/1 و 122).

(17) اعتمدت في الحديث عن كتبه زيادة على بحثي الخاص مقدمة رمضان عيد التواب في تحقيقه الخطب والمواظ لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق الدكتور رمضان عيد التواب، ط، مكتبة الثقافة الدينية مصر. (ص : 39 - 72) ومقدمة الطهور لمشهور (ص : 42-52) الطبعة الأولى سنة 1994م مكتبة الصحابة جدة ومقدمة فضائل القرآن (ص : 16-20) لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، حققه وعلق عليه مروان العطية ومحسن الخرابية، ووفاء نقى الدين ط، ثانية 1999م، دار ابن كثير، دمشق.

فقال فيه قرينه إسحاق بن راهويه : "الحقّ يحبه الله عزّ وجلّ : أبو عبيد القاسم بن سلام، أفقه مني، أعلم، ونحن نحتاج إليه، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا" (18).

وسئل يحيى بن معين عن الكتابة عن أبي عبيد، والسماع منه، فقال : مثلي يسأل عن أبي عبيد؟ أبو عبيد يسأل عن الناس ؟ (19).

وقال إبراهيم الحربي : كان أبو عبيد كأنه جبل نفخ فيه الروح، يحسن كل شيء (20).

وقال أبو عمرو الداني : "إمام أهل دهره، في جميع العلوم، صاحب سنة، ثقة مأمون .." (21).

وقال عنه الذهبي : "الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون" (22).

وقال أيضا : "الإمام، أحد الأعلام، وذو التصانيف الكثيرة في القراءات، والفقه، واللغة، والشعر... وكان يجتهد، ولا يقلّد أحدا، ويذكر في طبقة الشافعي وأحمد وإسحاق، وكان أعلمهم بلغات العرب.." (23).

وقال ابن الجزري : "الإمام الكبير العلامة، أحد الأعلام المجتهدين" (24).

وقال السيوطي : "كان أبو عبيد إمام عصره في كل فن من العلم" (25).

(18) تاريخ بغداد (111/12).

(19) المصدر السابق (414/12).

(20) وفيات الأعيان.

(21) معرفة القراء الكبار (171/1).

(22) السير (490/10).

(23) معرفة القراء الكبار (170/1-171).

(24) غاية النهاية في طبقات القراء (18/2) لابن الجزري محمد بن محمد، تحقيق برجستراسر، القاهرة، 1932م.

(25) بغية الوعاة (253/2) لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة، 1966م.

وبالجملة فإنه كما قال ابن حبان : "وكان أبو عبيد أحد أئمة الدنيا صاحب حديث، وفقه، وورع، ومعرفة بالأدب، وأيام الناس، جمع وصنّف واختار، ونبّ عن الحديث ونصره، وقمع من خالفه" (26).

ز- وفاته :

بعد حياة حافلة بالعلم والمعرفة، والترحال والتدريس، توفي أبو عبيد في المحرم سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة بمكة المكرمة في دور جعفر بن محمد. وقد رثاه عبد الله بن طاهر قائلاً :

يا طالب العلم قد مات ابن سلام وكان فارس علم غير محجام
مات الذي كان فينا ربع أربعة..... لم تلق مثلهم أستاذ أحكام
خير البرية عبد الله أولهم..... وعامر، ولنعم التلو يا عام
هما اللذان أنافا فوق غيرهما..... والقاسمان ابن معن وابن
سلام (27).

2- التعريف بالكتاب وعرض منهجه

أ - موضوعه : قد يدرج هذا الكتاب الذي وضعه أبو عبيد ضمن التفسير الموضوعي، أو ضمن المسلك الذي اتخذه بعض العلماء حين ضيقوا دائرة البحث في التفسير، وتكلّموا عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة. كذا قال الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله. (28). وهذا في رأيي رأي وجيه إلى حدّ ما.

(26) النقات (17/9 - مصورة دار الفكر بيروت).

(27) تاريخ بغداد (412/12) والسير (506/10).

(28) ينظر كتابه التفسير والمفسرون (134/1 - ط، دار الحديث، القاهرة).

والأقرب عندي أن يكون هذا النمط من التصنيف، مقصد بعض العلماء، الذين اتجهوا رأساً صوب موضوع خاص في القرآن يجمعون ما تفرق منه ويفردونه بالدراسة والبحث.

ويعود ذلك الأمر حسب اعتقادي إلى سببين :

أولهما : ما يرجع إلى طبيعة الموضوع المتناول، فلاشك أن موضوع فضائل القرآن له مساس بعقيدة المؤمن، وسلوكه وعمله ، فاتجه هؤلاء العلماء إلى ذلك الضرب من التصنيف — وأغلبهم من المحدثين — انطلاقاً من رغبتهم في حض الناس إلى الخير، وترغيبهم في حفظ كتاب الله تعالى، والاعتناء به، والعمل بمقتضاه⁽²⁹⁾.

ثانياً : يؤيد ما سبق أنه قد وجد من العلماء من أفردته بالتأليف دون أن يكون لصاحبه تفسير أو له عناية به، مثل خلف بن هشام البزار (ت : 229هـ/883م) بل على القول بأن التفسير لم تتضح معالمه، وتتركز مناهجه إلا في نهاية القرن الثالث للهجرة يكون التأليف في الفضائل أسبق من علم التفسير بمعناه الاصطلاحي، بل إن هذا الفن امتدّ بعد ذلك، وتواصل التأليف فيه بالتوازي مع حركة التفسير حتى عصر الإمام السيوطي (ت : 911هـ/1505م) كما يبينته في دراسة مفصلة حول هذا النمط من التصنيف⁽³⁰⁾.

يضمّ كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام بين دفتيه نحو واحد وسبعين باباً في قضايا تتعلق بالقرآن الكريم. وإذا أمعنا النظر فيها فإننا نستطيع أن نقسمها إلى خمسة أقسام رئيسية وهي :

تناول القسم الأول قضايا تتعلق بفضل تعلّم القرآن الكريم وتعليمه، وقراءته والاستماع إليه، والحضّ عليه، والإيصاء به، وإيثاره على ما سواه،

(29) في كلام الدكتور فاروق حمادة ما يشدّ عضد هذا الذي ارتأيتّه فیراجع كتابه مدخل إلى علوم القرآن والتفسير (ص : 238 - 239، ط مكتبة المعارف، الرباط).

(30) هي دراسة بعنوان : "الكشف والبيان عما ألف في فضائل القرآن".

وأتباعه والعمل به، وتعظيم أهله وإكرامهم وتقديهم، فضل تعلمه والسعي إلى طلب علومه، وقراءته، وغير ذلك (31).

وتناول أبو عبيد في القسم الثاني، جملة من الأبواب تتعلق بحامل القرآن، وما ينبغي له من أدب، وما يستحبّ له من إكرام القرآن وتعظيمه وتنزيهه، وما يؤمر به من إعطاء التلاوة حقها، وأنها زيادة على القيام به في الصلاة، فإنها تعني الاتّباع والطاعة له والعمل به، ثم ما يستحبّ لقارئ القرآن من البكاء عند القراءة في صلاة وغير صلاة، وما يستحبّ له من التّعوذ إذا مرّ بذكر النّار، ومن التّرسّل في قراءته والتّرتيل والتّدبّر، ثم تحسين القرآن وتزيينه بصوته. ثم تعرّض كذلك إلى جملة من الآداب على القارئ أن يتحلّى بها منها : عدم الجهر بالقرآن حتّى يؤذّي غيره، وفي كم يقرأه ؟ وما يستحبّ له من المحافظة على ورده في اليوم واللّيلة. كما تعرّض إلى بعض الأحكام الفقهيّة التي لها علاقة بالقرآن مثل حكم السّقر بالقرآن إلى أرض العدو، وكراهة نسيان شيء من الذّكر الحكيم أو المباهاة به، والنّهي عن أن يستأكل المسلم بالقرآن، وحكم قراءته على غير وضوء (32).

استعرض المؤلف في القسم الثالث فضل البسملة، ثمّ الفاتحة، ثمّ فضل السّبع الطول، ثمّ فضل سورة البقرة وخواتيمها وآية الكرسي، ثمّ فضلها مع آل عمران والنّساء، ثمّ فضل المائدة والأنعام، وهكذا يسوق أبو عبيد ما ورد من فضل في بقية السّور التي ثبت لديه فيها فضل، إلى أن يصل إلى ما ثبت لديه في سورة الإخلاص من ثواب، ثمّ المعوذتين، ثم ختم ذلك بذكر فضل آيات متفرقة من القرآن الكريم (33).

(31) فضائل القرآن، (ص : 43-107 ط دار ابن كثير، دمشق).

(32) المصدر السابق، (ص : 111-214).

(33) المصدر السابق، (ص : 216-274).

وساق أبو عبيد في القسم الرابع أبواباً لها صلة بتأليف القرآن، وجمعه، ومواضع حروفه وسوره، ثم الرواية من الحروف التي خولف بها الخط في القرآن، ثم ما رفع من القرآن بعد نزوله، ثم الحروف التي اختلفت فيها مصاحف أهل الحجاز والعراق وأهل الشام، وذكر الفروق التي بينها. ثم ذكر ما يتعلق بلغة القرآن وإعرابه، ومعنى المراء في القرآن والتعليق في ذلك، كما ذكر مسألة عرض القراءة على الشيخ والتمسك بنهج السلف في ذلك، وذكر أيضاً القراء من الصحابة والتابعين. ثم ساق آثاراً في كراهة التفسير بالرأي، وما يكره من كتمان قراءة القرآن وستره ونشره وكذا تعرض إلى مسألة الاستشفاء بكتاب الله والاستقراء به، وختم هذا القسم بباب ما جاء في مثل القرآن وحامله والعامل به والتأرك له⁽³⁴⁾.

واهتم أبو عبيد في القسم الخامس، بحكم بيع المصحف واشترائه، ثم الرخصة في نقطه وكراهة ذلك، ثم ذكر باباً في تعشير المصحف وفواتح والآي، ثم حكم تزيين المصاحف وحليتها بالذهب والفضة، وكذا في كتاب المصاحف وما يستحب من عظمها ويكره من صغرها ثم ختم الكتاب بذكر حكم مسح المصحف بالنسبة للمترك أو المسلم الذي ليس بطاهر⁽³⁵⁾.

ب - منهجه :

لم يشذ أبو عبيد في تصنيف هذا الكتاب عن منهج أصحابه من أهل الحديث، لأنه بالأساس محدث، بل هو من حفاظ الحديث وأئمتهم. فأول ما يسترعي انتباه القارئ أربعة أمور :

يتمثل الأمر الأول في كثرة الأسانيد التي يسوقها أبو عبيد، فلا تخلو المسائل التي يريد الاستدلال عليها من سند له إما إلى النبي صلى الله عليه

(34) المصدر السابق، (ص : 280 - 386).

(35) المصدر السابق، (ص : 389 - 400).

وسلم⁽³⁶⁾، أو إلى الصحابي⁽³⁷⁾ أو إلى التابعي⁽³⁸⁾، وهذا المنهج هو الطريقة التوثيقية للمعلومة عند المسلمين عامة في العصور المتقدمة، وهو أيضا طريقة المحدثين وعمدتهم في وصل الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة خاصة.

كما يلاحظ الباحث البصير والمتتبع لكتب هذا الإمام، أن سوق أبي عبيد للأسانيد، أمر يعمّ أغلب كتبه المعروفة، سيما ما كان منها ذا طابع حديثي⁽³⁹⁾ أو فقهي⁽⁴⁰⁾.

ويمكن الأمر الثاني في التّراجم، التي أقامها أبو عبيد يعبر عنها اليوم بالعناوين، فذلك منهج متبع عند أغلب المحدثين إن لم أقل كلّهم. ولاشك أن صاحبنا قد تأثر بمن سبقه من المؤلفين كالإمام مالك بن أنس، في "موطنه"⁽⁴¹⁾ وتفاعل مع غيره من أقرانه من أهل العلم، وبخاصة منهم المحدثين من أمثال ابن أبي شيبة⁽⁴²⁾ وغيره ممن جاء بعده، كما يأتي تفصيل ذلك بعد. ولعل أبا عبيد كان من أوائل المصنّفين الذين استعملوا أسلوب التّراجم، وهي التي تعبر عن فقه العالم، ومدى استنباطه من النص الذي يرويّه. وقد اشتهر عند أهل

(36) المصدر السابق، (ص : 43 - 44 و 48 - 49 و 65 ..).

(37) المصدر نفسه، (ص : 51 و 52 و 53 و 61 و 62 و 71 و 72 و 73 ..).

(38) المصدر نفسه، (ص : 53 و 57 و 58 و 59 و 62 و 77 و 79 و 80 و 96 و 97 و 98 و 100 و 101 و 108 و 109 و 112 و 114 ..).

(39) غريب الحديث (1/ 16 و 20 و 24...) و (2/ 13 و 49 و 85../ط دار الكتب العلمية) والخطب والمواعظ (ص : 87-88 و 94-95..).

(40) ينظر كتابه : الأموال (ص : 9 و 10 و 11 و 13 و 15 و 16 و 19 و 21../ط مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت).

(41) قارن ترجمة مالك في الموطأ : باب الرخصة في قراءة القرآن على غير وضوء (1/ 276 - ط دار الغرب) بترجمة أبي عبيد في فضائل : باب القارئ يقرأ القرآن على غير وضوء.. (ص : 192).

(42) فعند أبي عبيد في فضائل (ص : 205) : باب القارئ يستأكل بالقرآن ويرزأ عليه الأموال وما في ذلك من الكراهة والتشديد. بينما نجد عند ابن أبي شيبة في كتاب فضائل القرآن من المصنف (10/ 221) يذكر بابا بعنوان : من كره أن يتأكل بالقرآن. كما نجد عند أبي عبيد (ص : 43) باب فضل القرآن وتعلمه وتعليمه الناس، عبر عنه ابن أبي شيبة في المصنف، تحقيق حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيديان، ط أولى، 2004م. مكتبة الرشد، الرياض. (10/ 237) بقوله : فيمن من تعلم القرآن وعلمه.

العلم أنّ هذا الأمر من خصائص الإمام البخاري، حتّى قالوا : "فقه البخاري في تراجمه" والحقّ أنّ هذا المنهج ليس من ابتداع البخاري، بل شاركه في ذلك من أقرانه من أهل الحديث طائفة، بل يمكن الجزم بأنّه تأثّر في ذلك بشيوخه من أمثال الإمام الدارمي (ت : 255 هـ/868م) صاحب "المسند" وهو مرتّب على الأبواب، ومما لاشكّ فيه أنّه اطّلع على كتب أبي عبيد، كيف لا وشهرة أبي عبيد قد طبقت الآفاق، وجابت كتبه البلدان.

وفي الأمر الثالث لم يضع أبو عبيد بين يدي كتابه مقدّمة، تبيّن مقصده من هذا التّصنيف، وتوضّح طريقته في تناول المسائل، التي يتعرّض لها بالتحليل والشرح. ولا عجب في ذلك، فإنّ الأمر لا يعدو أن يكون طريقة متّبعة عند أغلب المحدثين في القرون الأولى، ما عدا الإمام مسلم صاحب "الصّحيح" الذي قدّم لكتابه ذاك لأسباب علميّة موضوعيّة دعه لذلك بينها العلماء. وهذا لا يعني بالضرورة أن صاحب الكتاب - أعني أبا عبيد - حين وضع تصنيفه لم يكن يملك تصوّراً واضحاً عن موضوع كتابه، أو أنّه قد اتّفق له أن يجمع أحاديث وآثاراً بصفة اعتباطية دون أن يستجمع قواه العقليّة، أو أن يسير على منهج علمي يوصله إلى المقصود ؟ ويؤيّد هذا الذي ذكرته أنّك - بعد التأمّل في الأبواب - تجدها متماسكة مترابطة، أخذ بعضها برقاب، فلا ترى بينها تنافراً، ولا في ترتيبها اختلالاً. بل إنّ ترتيبه للكتب - التي هي بمثابة المحاور في عصرنا الحالي - يدلّ على عقل حصيف وبعد تربوي عميق لدى أبي عبيد رحمه الله، فقد عنون كتابه الأوّل بـ "فضل القرآن ومعالمه وأدبه" (43) وهو محور خصّه أبو عبيد لمنزلة للقرآن الكريم وفضله، وبيان الثّواب في حفظه وقراءته والعمل به (44).

(43) فضائل القرآن، (ص : 43) وفي طبعة وزارة الأوقاف بالمغرب "وآدابه" بدلا من "أدبه".
(44) المصدر السابق، (ص : 43-110).

ثمّ انتقل إلى محور آخر، عنوانه بـ :جملة أبواب قرّاء القرآن ونعوتهم وأخلاقهم⁽⁴⁵⁾. وهو محور يتمّ ما سبق، ففضل القرآن ومكانته في الشريعة، يستلزم من المؤمن العمل به، والالتزام بحدوده وآدابه. ثمّ انتقل المؤلف بعد ذلك إلى محور آخر بعنوان : جماع أبواب سور القرآن وآياته وما فيها من الفضائل⁽⁴⁶⁾ وهو كتاب يعتبر بمثابة التفصيل للباب الأول، وكأنّني بأبي عبيد يرشد القارئ المجد إلى تطبيق ما علمه من أصول الفضائل، ثمّ الانتقال إلى معرفة فروعها وهي السور التي وردت فيها أحاديث وآثار، تبرز ما فيها من فضيلة، بحسب ترتيب المصحف ، مبتدئاً بالبقرة منتهياً بالمعوذتين.

ثمّ إنّ أبا عبيد رأى أنّه من الضروري الحديث عن تاريخ القرآن، فعنون المحور الرابع من كتابه باسم : جماع أحاديث القرآن وإثباته في كتابه وتأليفه وإقامة حروفه⁽⁴⁷⁾. فأراد أن يعرف القارئ كيف جمع القرآن، وبأي لغات العرب نزل، وما رفع منه بعد نزوله، والحروف التي اختلف القراء فيها، إلى غير ذلك من المسائل.

ثمّ ختم أبو عبيد الكتاب بمحور يتعلّق بالمصحف الشريف من أحكام، مثل جواز بيع، ومسألة نقطه وجواز ذلك أو كراهته، وحكم لمسه لمن ليس بطاهر، أو للمشرك. وسمّى ذلك الكتاب : بجماع أبواب المصاحف وما جاء فيها ممّا يؤمر به وينهى عنه⁽⁴⁸⁾.

أمّا الأمر الرابع، فيتمثّل في أنّ أسلوب أبي عبيد في هذا العمل العلمي قد اتّسم بالوضوح والبيان، لا غموض فيه ولا تعقيد.

(45) المصدر السابق، (ص : 111-215).

(46) المصدر نفسه، (ص : 216-279).

(47) المصدر نفسه، (ص : 280-388).

(48) المصدر نفسه، (ص : 389-403).

فبعد أن يذكر الترجمة، يسوق أبو عبيد بسنده المتصل إمّا بالحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم (49) وقد يسوقه بأكثر من طريق — وذلك لاعتبارات حديثية بحتة — (50) ثم يأتي عقبه في الغالب بأثر من أقوال الصحابة، (51) أو من أقوال التابعين (52) ثم إنَّ أبا عبيد لنزوعه نحو الاجتهاد، وميله إلى الفقه والاستنباط، وهو الإمام المجتهد، المتحرر من قيود التعصب، وأغلال الجمود على أقوال غيره من الفقهاء، تراه لا يفوت أيَّ فرصة للإدلاء برأيه، إمّا بشرح لفظة غريبة في الحديث كقوله إثر حديث مرفوع بلفظ: "يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وتغنوه، وتقنوه.." قوله: تغنوه، يقول: اجعلوه غناكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال معه فقرا. وقوله: تقنوه، يقول: اقتنوه كما تقننون الأموال، واجعلوه مالكم" (53).

أو بتوجيه معنى قد يشكّل على القارئ كقوله بعد أن ساق الحديث المرفوع بلفظ: "لو كان القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق" قال أبو عبيد: وجه هذا عندنا أن يكون أراد بالإهاب قلب المؤمن وجوفه الذي وعى القرآن" (54).

وقال أيضا تعليقا على قول عبد الله بن مسعود: "إنَّ هذا الصراط محتضر، تحضره الشياطين، يقولون: هلم يا عبد الله، ليصتوا عن سبيل الله. فعليكم بكتاب الله فإنّه حبل الله" أراد عبد الله بقوله: "فإنّه حبل الله" قول الله تبارك وتعالى: "واعتصموا بحبل الله جميعا" (آل عمران: 103) (55) وقد

(49) المصدر السابق، (ص: 43-44 و 89 و 104 و 117 و 126 و 135 و 141 و 144 و 159 و 168 و 171...).

(50) المصدر نفسه، (ص: 68-70 و 86-87 و 90 و 91 و 111 و 112 و 160 و 161 و 220...).

(51) المصدر نفسه، (ص: 71 و 83 و 90 و 104 و 105 و 135 و 168 و 172 و 173...).

(52) المصدر نفسه، (ص: 47 و 62 و 96 و 110 و 112 و 117 و 145 و 181 و 182...).

(53) المصدر نفسه، (ص: 71) وينظر (ص: 162)..

(54) المصدر نفسه، (ص: 54 و 210).

(55) المصدر نفسه، (ص: 75 و 216).

يتدخل أبو عبيد لتوضيح مسألة فقهية، فيبدي رأيه واجتهاده. من ذلك ما ذكره في باب القارئ يختم القرآن كله في ليلة أو في ركعة. قال أبو عبيد : "والذي عليه أمر الناس أن الجمع بين السور في الركعة حسن واسع غير مكروه. وهذا الذي فعله عثمان وتميم الداري وغيرهما هو من وراء كل جمع. ومما يقوي ذلك حديث عبد الله الذي ذكرنا قوله : قد علمت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما. إلا أن الذي أختار من ذلك ألا تقرأ في أقل من ثلاث للأحاديث التي ذكرناها عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الكراهة لذلك" (56) وهكذا يستمر أبو عبيد في إبداء آرائه الفقهية كلما رأى ذلك مناسباً (57). وبالجملة، فإن كتاب أبي عبيد يخاله الباحث لأول وهلة كتاب فضائل فحسب، فعندما يبدأ في تقليب صفحاته، والبحث في ثناياه، يتبين له أن فيه إضافة إلى ذلك دررا فقهية، ومسائل علمية مفيدة ، تشد نظره، وتقرض عليه الوقوف عندها.

وقد يوضح أبو عبيد اسم علم ورد مبهما في بعض الأسانيد ونحو ذلك مما يتعلق بالرواية، وهو ما يدل على تمكنه من علم التراجم ومعرفته بالرجال (58) .

كما يصوب كلمة رواها الراوي بالرفع وهي بالكسر (59) وربما روى الحديث قائلا : " بإسناد لا أحفظه " (60). وربما تحدث عن الخلاف في الإسناد بين العلماء، وربما صرح بأن : " فلانا لم يسند هذا الحديث، وأسنده غيره "، ونحو ذلك (61) وقد يعلق على المحدثين : "هكذا يقول المحدثون بالنون وإعرابها

(56) المصدر السابق، (ص : 183) .

(57) المصدر السابق، (ص : 190 و191 و196 و199 - 200 و219 و273) .

(58) المصدر نفسه، (ص : 113 و355 - 354) .

(59) المصدر نفسه، (ص : 101 و196 و227) .

(60) المصدر نفسه، (ص : 155 و195 و203) .

(61) المصدر نفسه، (ص : 98 و221 و226 و247 و286) .

"لا ينصروا" والمحدثون يحدثونه بالإجراء، ولا أدري أمحفوظ هو أم لا، إلا أنه في العربية على ترك الإجراء⁽⁶²⁾.

ج - مصادره في هذا الكتاب :

لعل في استخراج المصادر لكتاب معين، أو استعراضها عند مؤلف معروف، ما ينفع الباحثين وينبهم إلى المشارب العلمية، التي بني عليها ذلك العمل العلمي. كما تنبئ تلك المصادر المتنوعة عن اطلاع صاحب كتاب، بل إن ذلك الأمر يكشف للدارس عن خفايا معرفية عند المؤلف ما كان له أن يقف عليها إلا بسلك ذلك النمط من البحث ...

أما عند صاحبنا الإمام أبو عبيد رحمه الله تعالى، فالملاحظ أنه قد اعتمد على نفس المصادر التي اعتمد عليها المحدثون من قبله وممن عاصره، وهي روايات الحديث والآثار المسندة. وتلك الطرق اعتبرت عند علماء المسلمين، من المحدثين والفقهاء، والمؤرخين بل حتى اللغويين والنحويين، من أوثق السبل لإثبات المعلومة، وتوثيق الأقوال، فلا يثبت حديث أو أثر أو قول لإمام متبع حتى يتصل السند بين الناقل والقائل بالشروط التي وضعها أهل المصطلح في ذلك. ولعل أبا عبيد قد سبق بهذا النوع من التأليف - أعني فضائل القرآن - فببتبع رواياته في هذا الكتب لم أجد من الشيوخ أو من العلماء ممن نسب إليه كتاب في هذا الفن باستثناء هشام بن عمار بن نصير السلمي الدمشقي الخطيب وهو حافظ صدوق عرف بفن الحديث كما عرف بفن القراءات، روى عنه أبو عبيد في كتابه في عدة مواضع (ينظر : فضائل القرآن ص : 161، 207، 231، 330، 359) فيحتمل أن يكون أبو عبيد روى من طريق هشام بن عمار هذه الآثار وهي من كتاب شيخه الذي وضعه في "فضائل القرآن" كما يحتمل أن يكون ذلك من رواياته خارج كتابه ذاك، ولا يمكن الجزم بذلك إلا بالوقوف على كتاب هشام بن عمار، ولا أعلمه حتى الآن مخطوطا فضلا عن أن يكون مطبوعا.

(62) المصدر نفسه، (ص : 314 وانظر : 231 و254 و256 و296) .

3 - أثر الكتاب في الدراسات القرآنية

إنَّ شخصيّة أبي عبيد القاسم بن سلام، تميّزت بعدّة خصال جعلت العلماء والمحدثين، يتنافسون في سماع كتبه وروايتها، نظراً لما اختصّ به من دقّة في العلم، وتحرّ في النقل، وجودة في الرأْي، وحسن اختيار. تلك الثروة التي أورثها أبو عبيد من جاء بعده، كانت محلّ إعجاب المصنّفين، ومورداً معرفياً خصباً، يستقي بعضهم منه الحديث والآثار، ويرتوي منه البعض الآخر التّراجم والعناوين، ويستعين به من يبتغي الدّفاع عن القرآن ويذود عن حماه. ولعل فيما يأتي، ما يجلي مدى تأثير كتاب "فضائل القرآن" في مصنّفات طائفة من العلماء المحقّقين.

أ - ابن الضّريس محمد بن أيّوب البجلي (ت: 294هـ/906م)⁽⁶³⁾

يلاحظ أنّ هذا المحدث قد تأثّر بمنهج أبي عبيد عند تصنيف كتابه "فضائل القرآن" وما أنزل من القرآن بمكّة وما أنزل بالمدينة "فنجده يذكر ويترجم بـ"باب الرّجل يمرّ بآية تخويف ورحمة فيسأل أو يتعوذ"⁽⁶⁴⁾ وهذه التّرجمة نجد نحوها عند أبي عبيد إذ يقول : "باب ما يستحبّ للقارئ إذا مرّ في قراءته بذكر الجنّة من المسألة ويذكر النّار من التّعوذ"⁽⁶⁵⁾ وما يؤكّد هذا الذي ارتأيته أنّ ابن الضّريس ذكر ثلاثة أحاديث مرفوعة للنّبي من طريق حذيفة بن اليمان، وأبي ليلي، وعائشة⁽⁶⁶⁾، وبعد المقارنة، نجد تلك المرويات بعينها عند أبي عبيد⁽⁶⁷⁾. كما نجد ترجمة عند ابن الضّريس "باب فيمن كره التّعشير"⁽⁶⁸⁾ في

63 ترجمته في تذكرة الحفاظ (2/643-644) والسير (13/449-453).

64 البجلي أبو عبد الله محمد : فضائل القرآن، تحقيق غزوة بدر، ط أولى، 1987م، دار الفكر دمشق، (ص : 27).

65 أبو عبيد : فضائل القرآن ، (ص : 141).

66 فضائل القرآن برقم (5 و 6 و 7).

67 فضائل القرآن ، (141 - 143).

68 التّعشير : هو وضع علامة بعد كل عشر آيات من القرآن الكريم، أو وضع رأس العين في موضع الأعرشار بدلاً من كلمة عشر.

المصحف" (69) بينما عنوانها أبو عبيد بـ "باب تعشير المصاحف وفواتح السور والآي" (70) والملاحظ أنهما أيضا قد تقاربا جدًا في ذكر الآثار المؤيدة للترجمة وهو ما يجلي التشابه بينهما.

ب - الفريابي : أبوبكر محمد بن جعفر بن الحسن (ت : 301 هـ/913م) (71)

كتاب الفريابي موسوم بـ "فضائل القرآن وما جاء فيه من الفضل، وفي كم يقرأ، والسنة في ذلك، وهو من أصغر الكتب في هذا المجال، وأبوابه قليلة بالنسبة إلى كتاب أبي عبيد. من أجل ذلك، لا نجد نقولا في هذا الكتاب عن أبي عبيد، ولا مرويات من طريقه، لكن نلاحظ تقاربا في مستوى بعض التراجم، مثل قول الفريابي : "باب ختم القرآن وما جاء فيه" (72) وعند أبي عبيد ترجمة بعنوان "باب فضل ختم القرآن" (73) كما يؤيد ذلك، اشتراكهما في سوق أثريين، عن أنس بن مالك (74) وعن سلمة بن كهيل (75). وقد نجد أيضا بين الكتابين تقاربا في مستوى المادة العلمية.

وبدا لي أن الفريابي قد استفاد في هذا الباب من كتاب ابن أبي شيبه في فضائل القرآن (76)، والذي يعتبر مؤلفه في نفس طبقة أبي عبيد فأعناه ذلك عن النقل عنه.

(69) ابن الضريس : فضائل القرآن، (ص : 41).

(70) أبو عبيد : فضائل القرآن، (ص : 394-395).

(71) ترجمته في تاريخ بغداد (7/199-202) والسير (14/96-111).

(72) الفريابي : فضائل القرآن (ص : 189-ط، مكتبة الرشد الرياض).

(73) أبو عبيد : فضائل القرآن، (ص : 107).

(74) عند الفريابي برقم (84 و 85 و 86) وعند أبي عبيد (ص : 109).

(75) عند الفريابي برقم (88 و 89) وعند أبي عبيد (ص : 107).

(76) يراجع فضائل القرآن للفريابي برقم (43 و 45 و 46 و 54 و 6 و 70 و 103 و 104 و 118 و 120 و 142 و 182 و 186 و 187 و 193 و 194 و 195) وهذه النقول موجودة في "المصنف لابن أبي شيبه كما هو ملاحظ من تخريج المحقق للنسخة المطبوعة فيراجع هناك.

ج - ابن أبي داود : أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث(ت) 316هـ/928م⁽⁷⁷⁾

هذا المحدث ابن المحدث أبي داود صاحب "السّنن" كان له اهتمام واضح بعلوم القرآن إضافة إلى نشاطه في علوم أخرى كالفقه والعقيدة. ويبدو أنّ التقارب بين كتاب ابن أبي داود وأبي عبيد يظهر في مستوى بعض الموضوعات، خذ مثلا الترجمة التي وضعها صاحب

"المصاحف" عنوانها بـ"نقط المصحف" ثم ذكر بعدها ترجمة أخرى بعنوان "وقد رخص في نقط المصاحف"⁽⁷⁸⁾ نجد أبا عبيد ذكر في كتابه ترجمة قريبة من ذلك فقد قال : "باب نقط المصحف وما فيه من الرخصة والكراهة"⁽⁷⁹⁾ وساقا كلاهما جملة من الآثار عن ابن سيرين، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، في النهي عن نقط المصحف. كم اشتركا أيضا في ذكر جملة من أقوال الصحابة والتابعين في النهي عن بيع المصحف، وأخرى في جواز ذلك⁽⁸⁰⁾ والملاحظ أنّ أبواب أبي عبيد أقلّ مادة علمية من كتاب ابن أبي داود، وهو راجع في رأيي إلى موضوع الكتاب، والغاية من وضعه، فكتاب "المصاحف" خصّصه صاحبه لكل ما يتعلّق بالمصحف من حيث الكتابة والجمع والتدوين وما إلى ذلك من الموضوعات. من أجل ذلك توسّع ابن أبي داود، في جلب طرق الأحاديث والآثار، بينما تميّز كتاب أبي عبيد بكلّ ما يخصّ القرآن، من علوم وآداب، وضمّن ذلك بعضا ممّا يتعلّق بالمصحف.

د - المستغفري : أبو العباس جعفر بن محمد النّسفي (ت) 432هـ/1040م⁽⁸¹⁾

وهذا الشّيخ من كبار المحدثين، ومن أهل المعرفة بالرواية والمتوسعين في ذلك. فقد نحا هذا العالم نحو أبي عبيد في تسمية كتابه بـ"فضائل القرآن"

(77) ترجمته في تاريخ بغداد (468-464/9) طبقات الحنابلة (96/3-103) والسير (221-237).
 (78) المصاحف (ص 324-330 - تحقيق محمد بن عبده ط، دار الفاروق، مصر).
 (79) فضائل القرآن (ص : 389-391).
 (80) المصاحف، (ص : 362-387 و 393 - 406) وفضائل القرآن (ص : 392-393).
 (81) ترجمته في تذكرة الحفاظ (1102/3-1103) والسير (564-565).

وهو أوسع كتاب وقفت عليه في هذا الباب. والملاحظ في هذا التأليف كثرة النقول عن الإمام أبي عبيد، ولعل مردّ الأمر إلى سببين موضوعيين : أولهما : تأخر زمن المستغفري عن زمن أبي عبيد، فبينهما ما يقرب من قرنين، فالمتأخر يجتمع لديه ما لا يجتمع لغيره ممّن سبقه من الحديث والآثار، بل من الوقوف على مصنّفات المتقدّمين في شتّى الفنون. وثانيهما : رواية المستغفري لكتاب "فضائل القرآن" بسنده إلى أبي عبيد⁽⁸²⁾، وهو ما يدلّ على سعي هذا العالم إلى جمع كل ما يتعلّق بموضوع كتابه، وكذا إلى توثيق المعلومات التي ينقلها⁽⁸³⁾.

وقد تنوّعت النقول عن أبي عبيد في كتاب المستغفري، فأحيانا يسوق حرفياً الترجمة التي أوردها أبو عبيد، مثلما فعله في باب "حروف القرآن التي اختلفت فيها مصاحف أهل الحجاز وأهل العراق وهي اثنا عشر حرف" وكذا فعل في الباب الذي يليه المترجم بـ"باب الحروف التي اختلفت فيها مصاحف أهل الشام وأهل العراق وقد وافقت أهل الحجاز في بعض وفارقت بعضها" بل إنّ الأمر اللافت لانتباه الباحث أنّ المستغفري نقل التّرجمتين بما فيهما من الحديث والآثار كاملتين، بل نقل مع ذلك تعليق أبي عبيد على ذلك⁽⁸⁴⁾. وهكذا يستمرّ المستغفري في الأخذ عن كتاب أبي عبيد واعتماد تراجمه الغنيّة بالفقه والاستنباط⁽⁸⁵⁾.

(82) يرويه عن أحمد بن عمار، أنا علي بن محتاج، أنا علي بن عبد العزيز، أنا أبو عبيد. وربما روى عن ابن زر عن علي. (مقدمة فضائل القرآن للمستغفري : 114/1، ط تحقيق وتخريج أحمد فارس السلوم، دار ابن حزم، بيروت).

(83) المصدر السابق، (117-112/1).

(84) المستغفري : فضائل القرآن، (367-362/1) وقارن بفضائل القرآن لأبي عبيد (ص : 328-333).

(85) كتاب المستغفري، (247-226/1) مع المقارنة بكتاب أبي عبيد (ص : 389-400) وينظر أيضا من الأوّل (529-513/2) ومن الثاني (ص : 225).

أما النقول عن كتاب "فضائل القرآن"، فهي كثيرة ومتنوعة، فقد ساق المستغفري في كتابه، أحاديث وآثاراً بسنده المتصل من طريق أبي عبيد، ووزعها في مواضع مختلفة من كتابه بحسب حاجته إليها في الأبواب (86).

هـ - السخاوي : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد
(ت : 643 هـ/...م) (87)

هذا العلم أحد كبار المقرئين، ومن بين الأفضال الذين كان لهم قدم راسخة في علوم القرآن.

ولما كان كتابه "جمال القراءة وكمال الإقراء" قد خصه لجملة من علوم القرآن، وجد نفسه مضطراً للأخذ عن كتاب أبي عبيد : "فاعتمد عليه اعتماداً كبيراً عند كلامه عن (منازل الإجلال والتعظيم في فضائل القرآن العظيم) ناقلاً أحياناً ومقتبساً أحياناً أخرى، فيقول مثلاً : وروى أبو عبيد القاسم - رحمه الله - ثم اختصر هذه العبارة بقوله : أبو عبيد، حدثنا .. ويسوق السند إلى آخره، وأحياناً كان لا يذكر السند بل يكتفي بقوله : وروى أبو عبيد عن ابن مسعود مثلاً وهذا كثير. وكان لا يصرح أحياناً بالنقل عن أبي عبيد، ولكن بالرجوع إلى فضائل القرآن : تبين لي ذلك " (88) كذا قال محقق كتاب السخاوي.

ولعل في تنوع الموضوعات التي تناولها أبو عبيد في كتابه "فضائل القرآن" مجالاً علمياً رحباً للعلماء الذين جاؤوا في فترة متأخرة عن أبي عبيد،

(86) المستغفري : فضائل القرآن، (1/رقم : 42 و 44 و 45 و 63 و 67 و 69 و 74 و 75 و 78 و 82 و 120 و 121 و 122 و 123 و 124 و 125 و 126 و 127 و 128 و 129 و 130 ..) و 2/رقم : 708 و 709 و 710 و 711 و 712 و 732 و 733 و 745 و 746 و 761 و 762 و 763 و 771 و 776 و 777 و 778 و 779 و 780 و 781 ..).

(87) ترجمته في : معرفة القراء الكبار (2/رقم : 596) والسير (124-122/23) وغاية النهاية (568-571).

(88) عبد الحق عبد الذابم، (1/71).

ولمّا اطلّغ عليه السّخاوي وجد فيه ضالّته ومطلّبه، فنهل منه معارف تخدم موضوعات كتابه⁽⁸⁹⁾.

و — أبو شامة : عبد الرّحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت : 665 هـ / 1266م)⁽⁹⁰⁾

أحد العلماء المحقّقين، في القراءات وفي غيرها من الفنون الإسلاميّة. تتلمذ على شيخه العلّامة السّخاوي الذي سبق ذكره آنفاً. وقد سمّى كتابه — الذي أخذ نصيباً من اسمه — " المرشد الوجيز إلى علوم تتعلّق بالكتاب العزيز " وهذا التّصنيف مختصر بالنّسبة إلى غيره من التّصانيف المتأخّرة في علوم القرآن، وخصّه صاحبه ببعض الموضوعات الهامّة، مع التوسّع في التطرّق إليها، ورغم ذلك، فإنّ أبا شامة اعتمد "فضائل القرآن" في مناسبات متعدّدة،

منها بعض التّراجم مثلاً جاء في الباب السّادس "في الإقبال على ما ينفع من علوم القرآن والعمل بها وترك التعمّق في تلاوة ألفاظه والغلوّ بسببها " ⁽⁹¹⁾ فمعناها وارد عند أبي عبيد في كتابه ⁽⁹²⁾، ولم يقتصر أبو شامة على ذلك بل صرّح قائلاً : "أخرج أبو عبيد القاسم بن سلّام في فضائل القرآن." ⁽⁹³⁾ كما ساق بعض اختيارات أبي عبيد في تأويل الأحاديث⁽⁹⁴⁾.

(89) جمال القراء (1/233 و 242 و 243 و 244 و 245 و 246 و 248 و 249 و و 252 و 253 و 254 و 259 و 260 و 262..) و (2/690) لأبي الحسن علي بن محمّد بن عبد الصّمد السّخاوي، دراسة وتحقيق عبد الحقّ الدّائم، ط أولى، 1999م، مؤسسة الكتب النّقافيّة، بيروت.

(90) ترجمته في : معرفة القراء الكبار (2/رقم : 641) وتذكّرة الحفاظ (4/1461-1462) وغاية النّهاية (1/365-366).

(91) المرشد الوجيز (ص : 193) : لأبي شامة عبد الرّحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، حقّقه طيّار ألتي فولاچ، ط، دار صادر بيروت 1975م.

(92) فعنده في الفضائل (ص : 211) "باب ما يكره من المباحاة بالقرآن والتعمّق في إقامة حروفه وتعليمه غير أهله".

(93) المرشد الوجيز، (ص : 12 و 14 و 83 و 91 و 193).

(94) المصدر السابق، (ص : 201).

وبالجملة، فإنه بعد دراستي لكتاب "المرشد الوجيز" تبين لي أن اعتماد أبي شامة على كتاب أبي عبيد واضح وجلي⁽⁹⁵⁾.

ز - الزركشي : أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله (ت : 794 هـ/1391م)⁽⁹⁶⁾

أحد الحفاظ المتفنين في علوم شتى، وممن جمع إلى علم الرواية، معرفة واسعة بالدراية، لاسيما علم أصول الفقه الذي شغل حيزا هاما من اهتماماته. وقد اشتهر من بين المصنفين في علوم القرآن، ويكفيه من ذلك كتابه "البرهان في علوم القرآن" الذي حاز به قصب السبق في عصره، ونال رضا من بعده. وقد عرف هذا العالم بسعة اطلاعه، وحرصه الشديد على المطالعة، وتقيد الفوائد التي يعثر عليها. ولاشك أنه أعجب بكتاب أبي عبيد "الفضائل" فطفق ينقل منه ما يراه مناسباً ومفيداً⁽⁹⁷⁾ من ذلك بعض آراء أبي عبيد واختاراته الموفقة، وترجيحته القوية⁽⁹⁸⁾.

ح - السيوطي : أبو بكر عبد الرحمن بن الكمال المصري (ت : 911 هـ/1505م)⁽⁹⁹⁾

يعتبر الإمام السيوطي من العلماء المتأخرين، الذين توسعوا في جمع أقوال المتقدمين وترتيبها وتهذيبها، ويرجع له الفضل في المحافظة على جملة كبيرة من المصنفات المندثرة والتي لا يعرف أحيانا إلا أسماؤها. وقد عنيت بطائفة من كتب السيوطي، بل حققت بعضها، فتبين لي مثلاً أن الرجل جماع،

(95) المصدر السابق، (ص : 16 و 21 و 22 و 32 و 40 و 52 و 92 و 98 و 99 و 135 و 152 و 157 و 165 و 170 و 198 و 199 و 201).

(96) ترجمته في : الدرر الكامنة بأعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني، (3/397، بيروت).
(97) البرهان في علوم القرآن، (ص : 174-175 و 181 و 199 و 298 و 299 و 310 و 315- ط، دار الحديث بالقاهرة).

(98) مثل رأيه في المراد بالحروف السبعة في القرآن، (ص : 152 وانظر : 29 و 203 و 290).
(99) الإقتان (1/96 و 136 و 140 و 160 - ط دار الحديث القاهرة).

واسع الاطلاع. ولم يشذ كتابه "الإتقان" عن هذه القاعدة، فترى فيه من المصادر الشيء الكثير والمفيد، وكان من بين ذلك كتاب أبي عبيد "فضائل القرآن" الذي أجاد استغلاله، وتفنّن السيوطي في توزيع موادّه المعرفيّة، في أبوابه بإتقان فزان به "الإتقان" وزاد فضلا من العرفان. ففي مجال أسباب النزول، نقل عن أبي عبيد بعض المرويّات. كما نقل عنه في معرفة المكي والمدني (100) وكذا فعل في بقية الأنواع المتعلّقة بآداب التلاوة (101)، وهكذا يواصل السيوطي اعتماده على أبي عبيد، في مختلف أبواب كتابه من أوله إلى آخره (102).

هكذا يمكننا أن نعتبر أبا عبيد أحد كبار العلماء الذين أثّروا تأثيرا واضحا وكبيرا في علوم القرآن، كما ترك بصمات له في كثير من تأليف من جاء بعده من الأعلام.

وقد كاد الباحث المنصف أن يجزم بأنّ أبا عبيد هو أول من وضع الأسس المعرفيّة لعلوم القرآن، فبعض النّظر عن كتبه الأخرى التي تناولت موضوعات ذات علاقة عضويّة بهذا العلم مثل كتابه "القراءات" و"معاني القرآن" و"الناسخ والمنسوخ"، فإنّه استعرض جملة من القضايا الرئيسيّة، والتي لا يستغني عنها المفسّر فضلا عن الباحث في علوم القرآن.

فكتابه "فضائل القرآن" مصدر أساسي، استقى منه من جاء بعده ممّن ألّف في الفضائل عامّة أو في علوم القرآن خاصّة، نظرا لأهميّته، ولمنزلة صاحبه وثقته وعلمه هكذا تمّ ضمان التّواصل المعرفي بين علماء الأمة الإسلاميّة، واستفادة المتأخّر من المتقدم، أو نقده أو الاستدراك عليه.

(100) المصدر السابق، (53/1 و 54 و 56 و 73).

(101) المصدر السابق، (312/1 و 317).

(102) المصدر السابق، (387570/2) و (63/3 و 64 و 66 و 67) و (390/4 و 394 و 395 و 398 و 400 و 401 و 440 و 442 و 443 و 453).